

تفسير البغوي

259 - قوله تعالى : { أو كالذي مر على قرية } وهذه الآية منسوقة على الآية الأولى تقديره { ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم } وإلى الذي مر على قرية وقيل : تقديره هل رأيت الذي حاج إبراهيم في ربه وهل رأيت الذي مر على قرية ؟ واختلفوا في ذلك المار فقال قتادة و عكرمة و الضحاك : هو عزيز بن شرخيا وقال وهب بن منبه هو ارميا بن حلقيا وكان بن سبط هارون وهو الحضر وقال مجاهد : هو كافر شك البعث واحتلفوا في تلك القرية فقال وهب و عكرمة و قتادة : هي بيت المقدس وقال الضحاك هي الأرض المقدسة وقال الكلبي : هي دير سابر آباد وقال السدي سلما باز وقيل : دير هرقل وقيل : هي الأرض التي أهلك ا فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقيل : هي قرية العنب وهي على فرسخين من بيت المقدس { وهي خاوية } ساقطة يقال : خوي البيت بكسر الواو يخوي خوى مقصورا إذا سقط وخوى البيت بالفتح خواء ممدودا إذا خلا { على عروشها } سقوفها واحدها عرش وقيل : كل بناء عرش ومعناه : أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها .

{ قال أنى يحيي هذه ا بعد موتها } وكان السبب في ذلك على ما روى محمد بن إسحاق بن منبه أن ا تعالى بعث إرمياء إلى ناشية بن أموص ملك بني إسرائيل يسدده في ذلك ويأتيه بالخبر من ا D فعظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي فأوحى ا تعالى إلى إرمياء : أن ذكر قومك نعمي وعرفهم أحداثهم وادعهم إلي فقال إرمياء إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخدول إن لم تنصروني فقال ا D : أنا ألهمك فقام إرمياء فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه ا في الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال في آخرها عن ا تعالى : وإني أحلف بعزتي لأقبضن لهم فتنة بتحير فيها الحكيم ولأسلطن عليهم جبارا فارسيا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى ا تعالى إلى إرمياء إني مهلك بني إسرائيل بياض وبافث من أهل بابل وهم من ولد بافث بن نوح عليه السلام فلما سمع إرمياء ذلك صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فلما سمع ا تضرعه وبكائه ناداه : يا إرمياء اشق عليك ما أوحيت إليك قال : نعم يارب أهلكني قبل أن أرى في بني إسرائيل مالا أسر به فقال ا تعالى : وعزتي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبلك ففرح إرمياء بذلك وطابت نفسه فقال : لا والذي بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بني إسرائيل ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحا فاستبشر وفرح فقال : إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة وإن عفا عنا فبرحمته .

ثم إ نهم لبثوا بعد الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إلا معصية وتماديا في الشر وذلك حين

اقترب هلاكهم فقل الوحي ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا فسلط ا^١ عليهم بختنصر فخرج في ست مائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس فلما فصل سائرا أتى الملك الخبر فقال لإرمياء : أين ما زعمت أن ا^١ أوحى إليك ؟ فقال إرمياء : إن ا^١ لا يخلف الميعاد وأنا به واثق فلما قرب الأجل بعث ا^١ إلى إرمياء ملكا قد تمثل له رجلا من بني إسرائيل فقال له إرمياء : من أنت ؟ قال : أنا رجل من بني إسرائيل أتيتك أستفتيك في أهل رحمي وصلت أرحامهم ولم آت إليهم إلا حسنا ولا يزيدهم إكرامي إياهم إلا إسقاطا لي فأفتني فيهم قال : أحسن فيما بينك وبين ا^١ وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك فمكث أيا ما ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال : أنا الذي أتيتك في شأن أهلي فقال له إرمياء : ما طهرت أخلاقهم لك بعد ؟ قال : يا نبي ا^١ والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى رحمة إلا قدمتها إليهم وأفضل فقال له النبي إرمياء عليه السلام : ارجع إليهم أسأل ا^١ الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم فقام الملك فمكث أيا ما وقد نزل بختنصر وخنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففرع منهم بنو إسرائيل فقال ملكهم لإرمياء : يا نبي ا^١ أين ما وعدك ا^١ قال : إني بربي واثق ثم أقبل الملك إلى إرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه D الذي وعده فقعد بين يديه فقال : أنا الذي أتيتك في شأن أهلي مرتين فقال النبي : ألم يأن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه ؟ فقال الملك : يا نبي ا^١ كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه فاليوم رأيتهم في عمل لا يرضي ا^١ : فقال النبي : على أي عمل رأيتهم ؟ قال : على عمل عظيم من سخط ا^١ فغضب ا^١ وأتيتك لأخبرك وإني أسألك با^١ الذي بعثك بالحق نبيا إلا ما دعوت ا^١ عليهم ليهلكهم فقال إرمياء : يا مالك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم وإن كانوا على عمل لا ترضاه فأهلكهم فلما خرجت الكلمة من فم إرمياء أرسل ا^١ صاعقة من السماء في بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابها فلما رأى ذلك إرمياء صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فقال : يا مالك السموات أين ميعادك الذي وعدتني ؟ فنودي أنه لم يصبهم ما أصابهم إلا بفتياك ودعائك فاستيقن النبي عليه السلام أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسول ا^١ A فطار إرمياء حتى خالط الوحوش .

ودخل بختنصر وخنوده بيت المقدس ووطئ الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه فيقذفه في بيت المقدس ففعلوا حتى ملؤوه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان في بلدان بيت المقدس فاجتمع عندهم صغيرهم وكبيرهم من بني إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلme وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثلثا قتلهم وثلثا سباهم وثلثا أقرهم بالشام وكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها

١٠ في بني إسرائيل بظلمهم فلما ولى عنهم بختنصر راجعا إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل إرمياء على حمار له معه عصير عنب في ركوة وسلّة تين حتى غشى إيلياء فلما وقف عليها ورأى خرابها قال : { أنى يحيي هذه ١١ بعد موتها } ؟ .

وقال الذي قال إن المار كان عزيزا : إن بختنصر لما خرب بيت المقدس وقدم بني إسرائيل ببابل كان فيهم عزيز زدانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود فلما نجا عزيز من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل دير هرقل على شط دجلة فطاق في القرية فلم ير فيها أحدا وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال : { أنى يحيي هذه ١٢ بعد موتها } قالها تعجبا لا شكا في البعث .

رجعنا إلى حديث وهب قال : ثم ربط إرمياء حماره بحبل جديد فألقى ١٣ تعالى عليه النوم فلما نام نزع ١٤ منه الروح مائة عام وأمات حماره وعصيره وتينه عنده فأعمى ١٥ عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع ١٦ السباع والطير لحمه فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل ١٧ ملكا إلى ملك من ملوك فارس يقال له نوشك فقال : إن ١٨ يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وإيلياء حتى يعود أعمر ما كان فانتدب الملك بألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل وجعلوا يعمرونه فأهلك ١٩ بختنصر ببعوضة دخلت دماغه ونحى ٢٠ من بقي من بني إسرائيل ولم يمت ببابل وردهم جميعا إلى بيت المقدس ونواحيه وعمروها ثلاثين سنة وكثروا حتى عادوا على أحسن ما كانوا عليه فلما مضت المائة أحيأ ٢١ منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيأ جسده وهو ينظر إليه ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح فسمع صوتا من السماء : أيتها العظام البالية إن ٢٢ يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض فنودي : إن ٢٣ يأمرك أن تكتسي لحما وجلدا فكانت كذلك ثم نودي : إن ٢٤ يأمرك أن تحيا فقام بإذن ٢٥ ونهق وعمر ٢٦ إرمياء فهو الذي يرى في الفلوات فذلك قوله تعالى : { فأماته ٢٧ مائة عام ثم بعثه } أي أحيأه { قال كم لبثت } أي : كم مكثت ؟ يقال : لما أحيأ ٢٨ بعث إليه ملكا فسأله كم لبثت ؟ { قال لبثت يوما } وذلك أن ٢٩ تعالى أماته ضحى في أول النهار وأحيأه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس فقال : لبثت يوما وهو يرى أن الشمس قد غربت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال { أو بعض يوم } بل بعض يوم { قال } له الملك { بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك } يعني التين { وشرابك } يعني العصير { لم يتسنه } أي لم يتغير فكان التين كأنه قطف من ساعته والعصير كأنه عصر من ساعته .

قال الكسائي : كأنه لم تأت عليه السنون وقرأ حمزة و الكسائي و يعقوب لم يتسن بحذف الهاء في الوصل وكذلك { فبهذاهم اقتده } (٩٠ - الأنعام) وقرأ الآخرون بالهاء فيهما

وصلا ووقفاً فمن أسقط الهاء في الوصل جعل الهاء صلة زائدة وقال : أصله يتسنى فحذف الياء بالجزم وابدل منه هاء في الوقف وقال أبو عمرو : هم من التسنن بنونين : وهو التغير كقوله تعالى : { من حمإ مسنون } (26 - الحج) أي متغير فعوضت من إحدى النونين ياء كقوله تعالى : { ثم ذهب إلى أهله يتمطى } (33 - القيامة) أي يتمطط وكقوله { وقد خاب من دساها } (10 - الشمس) وأصله دسيتها وتصغيرها سنيهة والفعل من السانهة وإنما قال : لم يتسنه ولم يثنه مع أنه أخبر عن شيئين رد التغير إلى أقرب اللفظين وهو الشراب واكتفى بذكر أحد المذكورين لأنه في معنى الآخر { وانظر إلى حمارك } فنظر فإذا هو عظام بيض فركب ا□ تعالى العظام بعضها على بعض فكساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر { ولنجعلك آية للناس } قيل الواو زائدة مقحمة وقال الفراء : أدخلت الواو فيه دلالة على أنها شرط لفعل بعدها معناه ولنجعلك آية أي : عبرة ودلالة على البعث بعد الموت قاله أكثر المفسرين وقال الضحاك وغيره : إنه عاد إلى قريته شاباً وأولاده وأولاد شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس والحية .

قوله تعالى : { وانظر إلى العظام كيف ننشزها } قرأ أهل الحجاز والبصرة ننشزها بالراء معناه نحياها يقال : أنشرا □ الميت إنشارا ونشرة ونشورا قال ا□ تعالى : { ثم إذا شاء أنشروه } (22 - عبس) وقال في اللازم { وإليه النشور } (15 - الملك) وقرأ الآخرون بالزاي أي نرفعها من الأرض ونردها إلى مكانها من الجسد ونركب بعضها على بعض وإنشاز الشيء رفعه وإزعاجه يقال : أنشزته فنشز أي رفعته فارتفع .

واختلفوا في معنى الآية فقال الأكثرون : أراد به عظام حماره وقال السدي : إن ا□ تعالى أحيأ عزيراً ثم قال له : انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه فبعث ا□ تعالى ريحاً فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل وقد ذهبت بها الطير والسباع فاجتمعت فركب بعضها في بعض وهو ينظر فصار حماراً من عظام ليس فيه لحم ولا دم { ثم نكسوها لحماً } ثم كسا العظام لحماً ودما فصار حماراً لا روح فيه ثم أقبل ملك يمشي حتى أخذ بمنخر الخمار فنفخ فيه فقام الحمار ونهق بإذن ا□ .

وقال قوم أراد به عظام هذا الرجل وذلك أن ا□ تعالى لم يمت حماره بل أماته هو فأحيا ا□ عينيه ورأسه وسائر جسده ميت ثم قال : انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره قائماً كهيئته يوم ربطه حياً لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر الرمة في عنقه جديدة لم تتغير وتقدير الآية : { وانظر إلى حمارك } وانظر إلى عظامك كيف ننشزها وفي الآية تقديم وتأخير وتقديرهما : وانظر إلى حمارك وانظر إلى العظام كيف ننشزها ولنجعلك آية للناس .

وقال قتادة عن كعب و الضحاك عن ابن عباس Bهما : لما أحيأ ا□ تعالى عزيراً بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس ومنازله فانطلق عليهم حتى أتى

منزله فإذا بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت عرفته وعقلته فقال لها عزيز : يا هذه هذا منزل عزيز ؟ قالت : نعم هذا منزل عزيز وبكت وقالت : ما رأيت أحدا من كذا وكذا سنة يذكر عزيزا قال : فإني أنا عزيز قالت : سبحان الله فإن عزيزا قد فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر قال : فإني أنا عزيز كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني قالت : فإن عزيزا كان رجلا مستجاب الدعوة ويدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية فادع الله أن يرد لي بصري حتى أراك فإن كنت عزيزا عرفتك فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال : قومي بإذن الله تعالى فأطلق الله رجلها فقامت صحيحة فنظرت إليه فقالت : أشهد أنك عزيز فانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ كبير ابن مائة سنة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس فنادت هذا عزيز قد جاءكم فكذبوها فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد علي بصري وأطلق رجلي وزعم أن الله كان أماته مائة سنة ثم بعثه فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ولده : كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فإذا هو عزيز .

وقال السدي و الكلبي : لما رجع عزيز إلى قومه وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق فبكى عزيز على التوراة فأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاهم ذلك الماء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة وبعثه نبيا فقال : أنا عزيز فلم يصدقوه فقال : إني عزيز قد بعثني الله إليكم لأجدد لكم توراتكم قالوا : أملها علينا فأملها عليهم من طهر قلبه فقالوا : ما جعل الله التوراة في صدر رجل بعد ما ذهبت إلا أنه ابنه فقالوا : عزيز ابن الله وستأتي القصة في سورة براءة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : { فلما تبين له ذلك عيانا } قال : أعلم { قرأ حمزة و الكسائي مجزوما على الأمر على معنى قال الله تعالى أعلم وقرأ الآخرون أعلم بقطع الألف ورفع الميم على الخبر عن عزيز أنه قال لما رأى ذلك أعلم { أن الله على كل شيء قدير }